أجرة الحلاقة

قصة بقلم محمد صالح ابراهيم

ليس في القرية من لا يعرف صالون عطية . فهو الصالون الوحيد فيها يؤمه من اهلها المزارعون وصغار العمال ، والاغنام وهي في طريقها الى المرعى . وبالرغم من ان عطية غريب في القرية فان الناس يحبونه ويستغلون تواضعه وحياءه الجم في تحقيق رغباتهم الخبيثة . فانه قد عودهم بطبعه ان يأخذ منهم اجرة الحلاقة ويدسها في جيبه دون النظر اليها . وهم على كثرة عددهم وضآلة عطائهم لا يحلقون رءوسهم الا مرة واحدة في الشهر . ففي الاسبوع الاول منه تزدحم ارض الصالون بهم وتعلو غوغاؤهم مع غبار الطريق . اما في الايام الاخرى فيكاد يخلو منهم الصالون .

وفي يوم من هذه الايام كان عطية جالسا في الصالون وحده ،ولم يفتح الله عليه بشيء منذ الصباح حتى وقت الظهيرة . ولم يكن يملك ما يسد به الرمق في ذلك اليوم العبوس . فقضى الوقت بالعبث بادوات الحلاقة او الاغفاءة القصيرة على مقعده الخشبي المتآكل او بطرد الاغنام الجريئة التي تقتحم صالونه بغير سبب ، او بالنظر في المرآة العتيقة كلما ضغط عليه الجوع . واثناء ذلك تذكر بائع السمك وهو من احسن رواده . لقد مضى عليه شهر كامل ولم يأت ليقص شعر رأسه . ليته يأتي في تلك اللحظات العجاف فانه رجل سخي كريم تعود ان يعطيه اجرة الحلاقة ومعها قطعتان من السمك الساخن. ولكنه تذكر ان لا امل في مجيئه في منتصف النهار . انه يذهب بالسمك في الصباح الباكر الى العاصمة ليبيعه هناك ولا يعود الا في المساء .

وفيما هو كذلك سابح في التفكير والتامل تختلط في خيشومه رائحة السمك الخيالية برائحة بعر الغنم المتخلف على الطريق ، اذا برجل تبدو عليه سمات الوجاهة والنعمة يدخل عليه فجاة ، فيحيي بايماءة قصيرة عاجلة ، ويتجه نحو المرآة الصدئة فيبدو فيها برداته الناصع الانيق النظيف كالقمر وسط الغمام .

* * *

وبقدر ما فرح عطية بمقدم هذا الزبون الطارىء ، بقدر ما ارتبك. فانه لم يحدث في تاريخ حياته ان دخل صالونه رجل نظيف .. وارتعش المقص في يده لما وقعت عليه عين الوجيه خلال المرآة . ولكن الوجيه اخذ يسري عنه بالحديث . ان مثله كان ينبغي ان يقص شعر رأسه في صالون من صالونات العاصمة الراقية . ولكنه كما يبدو رجل متواضع. وفي رأيه ان الفقراء اولى بالعطاء من غيرهم . انه من اصحاب المشروعات الكبرى والثراء العظيم . وانه ينفق عن سعة . وقد اختبر الناس واكثرهم جاحد لفضله ، وعرف اساليبهم في النصب والاحتيال.

ويصغي عطية الى محدثه باهتمام زائد، ويؤمن على حديثه بابتسامة ترتعش على شفتيه . ويمني نفسه بمبلغ ضخم اجرا للحلاقة ، فينشرح صدره وتعلو نبضات قلبه ، فيحس كأنما اقيم في جوفه حفلة رقص..

اجل ، انه سيأكل اليوم لحما وخضرا وفاكهة . ولكن الوجيه قص شعره ونهض قائما وحيا مودعا وخرج دون ان يدفع اجرة الحلاقة..

* * *

كانت الصدمة عنيفة . احس بصداها يئز في اعصابه . وكانما كان المكان من حوله يغمره ضوء كهربائي قوي ساطع فانقطع التيار فجاة وساد المكان الظلام . فلما افاق من الصدمة تساءل هل كان يعيش في حلم لذيذ فاستيقظ منه على وافعه المرير ؟! هل كان الرجل الذي قص شعره هنا قبل حين حقيقة ام خيالا ؟! وصوب نظره مليا نحو كرسي الحلاقة . كلا . كلا . انه واثق ان الامر كان حقيقة لا حلما . اذن كيف حدث ذلك ؟ هل نسي ؟ لا يمكن لاحد ان ينسى انه قص شعره وان عليه ان يدفع . هل يلحق به وينادي باعلى صوته ؟ انه لا يستطيع . ان شيئا ثقيلا قد حط على صدره وعاصفة هوجاء ثارت في نفسه . ومع ذلك لم يستطع ان يخطو نحو الباب لمجرد ان ينظر .. انه خجول. اجل خجول ولكنه في اشد الحاجة الى النقود ، الى اجرة الحلاقة . انها اصبحت من حقه . لقد شيد الامل عاليا في زبونه الجديد فخاب امله . واحس بأنه وقع في شراك نصاب غمطه حقه فامتلأ صدره غيظا. ثم وضحت له الرؤيا وبدت المظاهر امام عينيه وعلى الضوء جوفاء خادعة . ضرب كفا بكف وهو يقول في حسرة وفي خفوت : « لقد ذهبت اجرة الحلاقة ثمنا باهظا لصورة زائفة .. »

وفي اللحظة التالية رأى نفسه وجها لوجه امام رجل يبتسم . فذاب في ابتسامته كل ما علق بنفسه وفكره . ان الوجيه قد عاد ادراجه .. لا بد انه تذكر وانه من الشرفاء .

ـ لقد كان ببالي ان ادعوك لقص شعر الاولاد بمنزلي بالعاصمة .

ـ امرك . امرك يا مولاي .

ـ كنت اخشى انك لا تستطيع . فالمنزل يبعد من هنا نحوا من اربعة او خمسة كيلومترات .

ـ كل بعيد قريب ! سأذهب على الفور .

وصف له الوجيه الطريق الى منزله وشكره وانصرف . وعادت الثقة والاطمئنان الى قلب عطية . وادرك انه تسرع فظلم الرجل واساء به الظن . سيذهب توا فلا فائدة من بقائه هنا . يجب ان يذهب الان لان المواصلات بين القرية والعاصمة تتعثر بعد المساء وربما تنقطع . وفي اللحظة التالية كان عطية قد اغلق الصالون وحمل حقيبته الصغيرة وهرع الى محطة الباص .

وهناك في منزل الوجيه قص للاولاد شعورهم وهو فرح مستبشر. ان الاجر كبير كبير . حقا ان الرجل ينفق عن سعة . هذا المسكن الرحب ، هذا الاثاث الفاخر ، هذه الحديقة ، هذا اللعب مع الصبية، هذا الامل الكبير .. كل ذلك كان بمثابة « المسكن » لالم الجوع،المبدد لسام الانتظار ، المبرد للسكوت والتفاضي عندما اختطف ابن الوجيه مقص الحلاقة وهرب به داخل الحجرات ..

حل المساء ولما يعد الوجيه الى بيته . فبدا القلق يدب في نفس عطية وهو يتصور الكيلومترات الممتدة بينه وبين صالونه ، والساعة التي يتوقف فيها باص القرية ويريح ظهره من اعباء يومه . واسترعى انتباهه شيء يحدث بالمنزل . الاثاث الثقيل ينقل قطعة وراء قطعة

الى سيارة في الخارج .

ـ انتو راحلين من البيت الجميل دا ؟

وجاءه الرد من الاولاد :

ـ لا . نحن مسافرين للشمال بكره الصبح .

ووجم عطية واحس في رأسه يدا تعزف مقطوعة معقدة . واخذ يفكر . هل يرسل احد الاولاد الى امه لتعطيه حقه وينصرف ؟ ولكنه انصرف دون ان يقوى على ذلك ، تتناوح في نفسه اعاصير من قلق واشفاق وغيظ ومرارة وشيء آخر ..

* * *

وفي الصباح الباكر كان عطية يجوس خلال كتل بشرية مضطربة يموج بها فناء محطة السكة الحديد . وانتهت جولته بالقرب من عربة الدرجة الاولى . فمن المؤكد ان الوجيه يسافر عليها . وقف يرسل بصره الى نوافذها المفتوحة يطل منها الركاب برءوسهم الحليقة ... تنبعث من حناجرهم القوية وتتجاوب الصيحات والنداءات . ويبدو على قسمات وجوههم مختلف الاوضاع والمعاني . امراة باكية واخرى ضاحكة، ورجل عابس متجهم يطرق على مضض كمن اصيب بخيبة الامل . واخر باسم الثغر باش الوجه كمن نال وطرا وحقق غاية . واقترب الوقت وعطية ما زال يتصفح الوجوه . ولم يبق على موعد قيام القطار سوى دقائق معدودة . وفجأة ظهر الوجيه يحمل في يده حقيبة سوداء ومن ورائه اولاده وامهم . وهم عطية ان يخطو خطوة الى الامام ليكون في الطريق المستقيم بين الوجيه وباب العربة . ولكنه احس بالخجل يعقل قدميه . ومع ذلك وقعت عين الوجيه على عينه ، فاقبل عليه وهو يتصنع المزيد من العجلة ، وحياه تحية سريعة مقتضبة وهو يقول :

ـ انا آسف جدا اذ حالت ظروف سفري المفاجيء دون الرجوع الى منزلي في وقت مبكر ليلة البارحة .

وفي سرعة وقبل ان يتفوه عطية بكلمة اردف قائلا :

ـ عن اذنك دقيقة واحدة .

ودفع الاولاد امامه داخل العربة . وظل عطية في مكانه واحس ان حديث الوجيه قد احيا في نفسه الامل بعد ان كاد يموت . لقد عانى مشقة الذهاب الى بيت الوجيه والانتظار هناك والمجيء الى هنا . لا بد ان الوجيه سيدرك ذلك كله ويحسن تقديره فيجزل له العطاء . وهكذا اخذ عطية يعيش مع بقية الامل في اللحظات الاخيرة . ومضت دقيقة واثنتان وثلاث وهو ما فتيء يتطلع بناظره الى نوافذ العربة . واحس بالدقائق وهي تمر كانها حجارة تتكسر على رأسه . واخذ يتزايد قلقه مع الثواني وينمو نموا جامحا ، حتى اذا انطلق صفير القطار وتحرك اطل الوجيه برأسه الحليق من النافذة ولوح لعطية بالتحية ..

وحينئذ غاص قلب الحلاق في اعماقه واحس كان نارا في جوفه قد اشتعلت فاكلت كل شيء فيه حتى الخجل .. وبدا له وجه المجتمع على الضوء الكاشف . وعاد ادراجه حانقا مفيظا جائعا ساخطا على الناس وعلى نفسه ، وهو ينفث نفث المصدور :

ـ لقد ضاع حقي .. لقد عرفت السبب .. انا .. ولكني بعد اليوم .. بعد اليوم ..

وانقطع عن الحديث والفى قدميه تسرعان الخطو في الطريق الى صالونه . وهناك عند باب الصالون وجد بائع السمك في انتظاره على احر من الجمر .

الخرطوم

محمد صالح ابراهيم

كتاب ختم الأولياء

تأليف

الشيخ ابي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

تحقيق

عثمان اسماعيل يحيى

عضو المركز القومي للأبحاث العلمية في باريس

شعبة الحضارة الاسلامية

يُطلب من المكتبة الشرقية - ساحة النجمة - بيروت